البحث الثامن

المنهج السياسي
لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي
ودوره في حلِّ قضايا المسلمين في الهند

أ/ محمد واضح رشيد الندوي (*)

(*) مدير المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي. وأستاذ كلية اللغة العربية وآدابها بدار العلوم ندوة العلماء، ورئيس تحرير صحيفة الرائد العربية - لكهنؤ - الهند.

إن الهند بلد علماني ديمقراطي أساسه النمط الاشتراكي في الحكم، وقد وضع الواضعون للدستور الهندي الدستور في ضوء هذه القواعد الثلاث، لأن الهند بلد ذو أديان مختلفة، وإن كان بعضها خارجية الأصول، لكن الأجيال الناشئة عبر القرون نمت على التربة الهندية، واختمرت مناهجها وطبائعها بطينتها، وأخذت منها وأعطت الكثير فأصبحت جزءاً من الحياة الهندية، كان منها المسلمون والمسيحيون والمجوس واليهود، ومنها أديان نشأت في الهند لكنها تختلف في تعاليمها ومثلها وعقائدها اختلافاً بيّناً، كالجينيين والبوذيين والسيخ. أما الهندوس فإنهم أيضاً ينقسمون إلى فرق تكاد تشكل ديانات مستقلة بذاتها، في الآلهة، والأبطال، والأمجاد، والعادات، والتقاليد.

وقد سبب هذا الاختلاف صراعات وحروباً في الماضي، وهناك اختلاف سلالي، ولغوي، وثقافي، وتاريخي كذلك، وفي الشمال والجنوب أيضاً فرق وقبائل تختلف فيما بينها اختلافاً بائناً، ولا يربط هذه الفرق إلا الانتساب الموسع إلى الهندوكية، وهناك أيضاً اختلاف طبقي، وهو اختلاف عنيف يؤدي إلى صراعات دامية.

كذلك توجد فوارق واسعة في المجال الاقتصادي. هناك أسر تملك ثروات البلاد، بينما الفقر سائد، تعيش الأغلبية تحت مستوى الصفر، وطوائف ترتحل بصورة مستمرة طلباً للرزق، وطوائف توصف بالمنبوذين. إن الدستور الهندي الذي وضع في عام ١٩٥٠م، أي بعد ثلاث سنوات من الاستقلال، ينص على المساواة وعدم التمييز على أساس العقيدة، واللون، والطبقة، والجنس، ويؤكد على إتاحة فرص متساوية لجميع المواطنين، وفرض عقوبات على ممارسة التمييز، ومنح الدستور حقوقاً للأقليّات اللغوية، والدينية، والثقافية.

كان الدستور الهندي الذي تم إعداده بعد دراسة عميقة لدساتير العالم المختلفة من أفضل دساتير العالم باعتبار صلاحيته لخلق الانسجام بين

مختلف الطبقات، واحتفظ بهذه الروح قادة البلاد الأولون كغاندي، وجواهر لال نهرو، ومولانا أبو الكلام آزاد، ورفيع أحمد القدوائي، ولكن بعد انقضاء هذا الجيل الأول الذي قاد حركة التحرير، والذي كان يدعي الانتماء إلى التصور العلماني، والتسامح مع الأقليات والمساواة نشأت في الهند حركات متزمتة طائفية تدعو إلى تحويل كل أثر إسلامي إلى الهندوكية، وتعارض الطبيعة العلمانية للدستور، بل تدعو إلى إنشاء دولة هندوكية وفرض الثقافة الهندوكية، ويوجد في رجال الحكم قادة يتسامحون مع أصحاب الميول الطائفية والحركات الطائفية، ويدعمونهم سراً.

كانت هذه الطائفة المتزمتة محدودة، لكن النزعة الطائفية المتزمتة التي تطالب بإنشاء بلد هندوكي، وفرض الثقافة الهندوكية، ومكافحة آثار الحكم الإسلامي تضخمت بمر الأيام، وتجاوزت بعض الحركات إلى مكافحة الوجود الإسلامي، وطمس معالم الحضارة الإسلامية، ورفض معالم كل فضل في التاريخ الإسلامي، وقامت هذه الحركات بتربية عصابات بصورة سرية للهجوم على المسلمين، والقيام بأعمال النهب والسلب، وتخطيط الاضطرابات الطائفية في فترات مختلفة تخطيطاً دقيقاً بانتهاز فرص وأعذار عادية، وتساعدها وسائل الإعلام التي يملكها الرأسماليون من الأغلبية، وكانت أجهزة الأمن تغض البصر عن نشاطات هذه الحركات الحاقدة على الإسلام والمسلمين. وتحمل الكتب الدراسية كثيراً من المواد السامة، وتنشر الصحف مقالات وقصصاً ذات النزعة الهندوسية، وما يحمل الكراهية للمسلمين.

إن جمهور الشعب الهندي مسالم ومتسامح، لكن هذه المؤسسات تسمم أذهان السذج من الناس كما تسمم أذهان المثقفين.

كانت المسألة الأساسية في الهند هي إعادة الحكومة إلى التمسك بالدستور العلماني، والحياد في السلوك مع مواطني البلاد أولاً، وإزالة الكراهية والعداء ضد المسلمين التي تتصاعد بنشاطات الحركات الطائفية،

ليعيشوا كمواطنين بدون خوف وذعر، ويشاركوا في تقدم البلاد، وإصلاح أحوال المسلمين، وتصحيح عقيدتهم وتعليمهم وتوعيتهم، ومنعهم من اللجوء إلى أعمال طائشة تثير سخط رجال الحكم والأغلبية.

شعر سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي بخطورة الوضع، وأدرك بفراسته ودراسته للتاريخ ومتابعته للأحداث أن مستقبل المسلمين في خطر إذا لم يُتخذ مجهود جبّار لإزالة سوء الظن بهم، ومكافحة الكراهية السائدة والشحناء المتصاعد ضدهم، ولم تبدأ حركة لمعالجة النزعات الطائفية ومجابهتهم لإخوانهم في العقيدة، وكان هذا الطريق الذي اختاره الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي تختلف اختلافاً بائناً عن طريق الزعماء المسلمين الآخرين الذين كانوا إما مسالمين متسامحين يلازمون الصمت، وإما متهورين يواجهون كل قضية بالعنف والمجابهة مع الأغلبية ورجال الحكم، وكان هذا الطريق يحدث مشاكل في سبيل حل قضايا المسلمين، ويثير الكراهية في النفوس.

كتب سماحته رسائل إلى كبار قادة البلاد، وزعماء الحركات والمنظمات الشعبية والاجتماعية والسياسية، وجمع المثقفين من رجال الأغلبية على منابر مختلطة العناصر، وحثهم على تفهم الظروف، ومواجهة العناصر المتطرفة، فإن التطرف يعرض البلاد للحرب الأهلية ؛ لأن النظام والقانون إذا كانا في موضع الخطر فإن الأعمال الإنشائية، والعلمية والأدبية لا تستطيع أن تستمر، واختار سماحته أسلوب الإقناع والتفهيم، وقدّم نماذج من الخُلُق الإنساني النبيل، وحاول أن يحدث في القلوب العواطف الإنسانية، ويمحو الشحناء والكراهية، وخاطب الشعب الهندي كأنه يتحرّق لمستقبل البلاد، وكأنه هو المنذر المخلص للوطن. أقام سماحته اتصالات بالحكام وراسلهم، وكتب رسائل إلى كبار الوزراء والحكام يستلفت انتباههم إلى إيجاد الوئام الطائفي في الهند، ومكافحة الطائفية والعنصرية والفساد الخلقي، بعيداً عن كل نشاط سياسي حزبي، والتزم الحياد، فكان يقيم الاتصال بكل حاكم مهما كانت ميوله الحزبية

أو السياسية، ويبعد نفسه عن كل إغراء مادي وسياسي، ويثبت أنه لا يريد مقابل ذلك إلا النصح، وأنه لا يجري وراء أي مصلحة مادية، وفي الوقت نفسه واصل جهوده لتوعية المسلمين وتعليمهم وتربيتهم ومعالجة قضاياهم، وتهدئة أعصابهم، والتوسط بينهم وبين الحكومة.

يقول سماحته في كتاب (مسيرة الحياة) وهو يذكر هذا المنهج أو الانتقال من المجال الخاص للدعوة إلى المجال العام، ومن التأليف والبحث إلى مخاطبة الشعب ومعالجة مسائله:

«قادني جهازي الفكري والتربوي الذي لم يكن قد ترك عمله، ولم يطبق عينه عن الظروف والأوضاع المخيفة، والذي وضع نصب عينه دائماً تجارب الماضي وحقائق الحاضر وأخطار المستقبل، إلى اتجاه جديد وتجربة جديدة في المجال الدعوي الشعبي وهو عقد اجتماعات مشتركة شعبية، يدعى فيها غير المسلمين أيضاً باهتمام بالغ لا سيما المثقفين منهم، وتلقى فيها خطابات مع مراعاة أجوائهم وعقلياتهم تعرّفهم بالإسلام، وتزيل الوحشة منه وسوء التفاهم، وتحثهم على دراسة الإسلام والسيرة بعمق وإنصاف، وتجسّم لهم الأخطار المحدقة بالبلاد، للإفلاس الروحي والعقائدي، والانهيار الخلقي وسيطرة النظر المادي والشره للمال على المجتمع».

عقدت عدة اجتماعات ضخمة في مدن الهند الكبرى، تحدث فيها سماحة الشيخ الندوي وعدد من الزعماء الآخرين، بمراعاة الأذهان لغير المسلمين، واشترك فيها عدد من غير المسلمين الذي يحملون عواطف إنسانية.

يصف سماحته تأثير هذه التجربة، بعد أن ألقى خطاباً في مدينة سيوان في ولاية بيهار، وقد حدثت في المنطقة قبل ذلك اضطرابات عنيفة ذهب ضحيتها عدد كبير من المسلمين، وكانت العواطف ملتهبة والجو مكفهراً، وسوء الفهم عن الإسلام والمسلمين سائداً، وقد كانت الصحافة القومية

كعادتها في مثل هذه المناسبة قد عرضت المسلمين كالفئة الباغية المثيرة للفتن، يقول سماحته في سيرته الذاتية (في مسيرة الحياة):

«بعد انتهاء الخطاب، تقدم إليّ شيخ هندوكي معمر، وهو يقول بالإنجليزية: رائع، رائع، ثم قال: أريد أن أقول شيئاً، وقال: إنني سمعت في حياتي خطابين تأثرت بهما جداً، أحدهما خطاب س.ر.داس. والثاني خطاب مولانا اليوم، وأقول بصراحة إن محمداً ﷺ حق، ويا مولانا! إنك لست للمسلمين فحسب، بل إن لنا حقاً عليك، وسوف نكلفك بزيارة هذه المدينة مرة ثانية».

وبهذه التجربة الطيبة نبتت فكرة (رسالة الإنسانية). وهي الخطوة الأولى في هذا الاتجاه.

كانت هذه الاجتماعات التي يتحدث فيها الشيخ الندوي تجربة فريدة في تاريخ الهند الحديث، فقد عرفت الهند في العهد القريب اجتماعات سياسية، يتحدث فيها الزعماء السياسيون الذين كانوا يخوضون معركة تحرير البلاد، فكانوا يشنون هجوماً على الاستعمار البريطاني، أو اجتماعات للأحزاب السياسية التي كانت تبحث القضايا السياسية، أو كانت تعرف الاجتماعات الدينية التي كان لها منهج خاص وهو منهج الوعظ والإرشاد، باعتماد زائد على القصص والحكايات، وذكر البطولات، وقصص التاريخ، أو اجتماعات جدلية كانت تعقد بين مختلف الفرق، وقد زادت هذه الاجتماعات من الخصومة والعداء. وقد اتخذ سماحة الشيخ الندوي منهجاً جديداً، وهو حديث القلب مع القلب لعرض ما يؤثر على القلوب من تعاليم الإسلام والتاريخ الإسلامي من الناحية الإنسانية، وعرض حياة الرسول ﷺ مربياً للإنسانية والذي بعث متمّماً للأخلاق، رحمة للعالمين، واستعراض التاريخ الإسلامي بإبراز جوانب المساواة والتسامح، والعدل بين الناس، ورعاية حقوق غير المسلمين، واحترام الأديان، وكرامة الإنسان، والدعوة إلى إنشاء مجتمع إنساني نبيل، وينتقد ما وقع في حياة المسلمين من انحراف عن الجادة، ويسلك مسلك التأليف للقلوب، فنال هذا المنهج إعجاب غير المسلمين الذين كانوا

يعرفون عن الإسلام أنه دين القتال وسفك الدماء والتحجر، والانعزال عن الحياة، وأن الحكم الإسلامي حكم القسوة والإكراه، ولذلك كان عدد غير المسلمين في الاجتماعات التي يتحدث فيها الشيخ الندوي يتزايد كل يوم، ونالت هذه التجربة قبولاً، فوجهت الدعوة للخطاب في مدن الهند المختلفة وفي الاجتماعات المختلفة.

عندما تحدث الاضطرابات الطائفية أو كارثة طبيعية تتجه عناية العاملين المسلمين إلى إسعاف المنكوبين، وإعداد تقارير عن ضخامة الحوادث ومعرفة أسبابها.

اتجه تفكير سماحة الشيخ الندوي كدارس ومؤرخ إلى دراسة أسباب الاضطرابات ومعالجتها معالجة دائمة، ومن أجل ذلك قام بالاتصال برجالات الفكر، وأصحاب النفوذ لمنع الحوادث من الوقوع.

اشتعلت في أواخر عام ١٩٦٣م نار الاضطرابات الطائفية في المناطق الصناعية في شرق الهند، تكبد فيها المسلمون خسائر فادحة، وعكفت الجماعات الإسلامية باختلافها في الفكر على أعمال الإسعاف، وكانت قوة المسلمين موزعة، كل يحمل لواء خاصاً لحزبه.

وتجددت الاضطرابات في عام ١٩٦٤م حيث قتل في (جمشيد بور) و (راور كيلا) أكثر من ثلاثة آلاف من المسلمين، وفكر سماحته أن هذا الاتجاه للعنف ضد المسلمين لا يمكن أن يحول إلا بمساعدة أصحاب الشعور النبيل من غير المسلمين لأنهم في الأغلبية، وهم يستطيعون أن يؤثروا على أذهان رجال طبقتهم، وعن طريقهم يمكن التأثير على رجال الحكم لاتخاذ تدابير رادعة لوقف هذه الاضطرابات، ووقع الخيار على (جي بركاش نارائن) و(أشاريه) و(نوبا بهاوي)، وفي الوقت نفسه فكر الشيخ الندوي في وسائل نفخ روح المقاومة، والاعتداد بالنفس والاعتماد على الله في المسلمين أنفسهم، لكيلا يصيبهم الخور والجبن والاستكانة، فأجرى اتصالات مع القادة المسلمين

من مختلف الأحزاب السياسية لتكوين منظمة للأحزاب الإسلامية ليكون منبراً إسلامياً، يرفع عن طريقه صوت المسلمين موحداً.

عقد الاجتماع الأول الذي كان نواة لتأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي بلكناؤ في أغسطس ١٩٦٤م، وقرر المجلس كخطوة أولى القيام بجولات في المناطق المفجوعة بالاضطرابات، والتحدث للمنكوبين، والاتصال بالمثقفين من رجال الأغلبية لدعوتهم إلى التآخي والتضامن، فقامت هذه المؤسسة بهذه الجولة باشتراك عدد من غير المسلمين، وبفضل هذه الحركة تجرأ عدد من المثقفين من غير المسلمين على الدفاع عن المسلمين، والتنديد بنشاطات الحركات الطائفية المعادية للمسلمين، وكتب عدد من الصحافيين وأصحاب القلم مقالات في الصحف للدفاع عن المسلمين، وطالبوا بتحديد نشاطات المتزمتين من الهندوس.

بالإضافة إلى هذه المجهودات الرامية إلى إيجاد منبر مشترك لمختلف الطوائف والفئات الإسلامية، وتوحيد صفوف المسلمين التي تمثلت في المجلس الاستشاري الإسلامي، وتوعية المسلمين، وإيجاد منبر لجمع المسلمين وغير المسلمين، وإيجاد التقارب بينهم بالبحث عن أصحاب العواطف الإنسانية في غير المسلمين، وعقد اجتماعات مشتركة يخطب فيها المسلمون وغير المسلمين، وعقد حوارات بين قادة مختلف الأديان، والأحزاب، والذي تمثل في رسالة الإنسانية. انتهز سماحة الشيخ الندوي فرصة اللقاء بكبار الزعماء والقادة، والتحاور معهم والبحث عن مجالات التفاهم، وإزالة سوء تفاهمهم عن الإسلام والمسلمين، ولم يكتف باللقاءات بل أرسل إليهم رسالة مفصلة يشرح فيها قضايا البلاد وفيها قضايا المسلمين، ويلقنهم أن المسلمين جزء من الشعب الهندي، إن هذا الجزء إذا كان غير متفاهم ومنسجم فإن الشعب الهندي بكامله سيتعثر في مسيره، ولفت انتباههم إلى الاتجاهات الفاسدة في البلاد، وألّف رسائل تشرح خاصة هذه الاتجاهات، كالطائفية والعنصرية، والقومية المتطرفة، والحب الزائد للمال، والقتل والنهب، والفساد والرشوة.

ونقدّم رسالة واحدة من هذا القبيل، كتبها إلى آنديرا غاندي في أيام حالة الطوارئ، وقد كانت رئيسة الوزراء في تلك الفترة، قد اتخذت الإجراءات القاسية الدكتاتورية لقمع حركة مناوئة لها، لكن سماحة الشيخ الندوي تحدث في الرسالة بأسلوب رقيق مؤثر في النفوس، وبصراحة تامة، وكان رد فعل رئيسة الوزراء رغم هذا النقد اللاذع لحكمها إيجابياً، فأرسلت أحد مبعوثيها للتفاوض مع سماحته وإرضائه، في منزله في قريته رغم وُعورة الطرق، وتعرض القرية للفيضان الذي جعل المرور متعذراً.

وليست هذه الرسالة وحيدة بل كتب سماحته رسائل إلى راجيف غاندي -وكان لرسائله ولقاءاته الشخصية ومحاولته لإقناعه بقضية المرأة المسلمة المطلقة دور فعال في إجراء التعديل في قانون المرأة المسلمة المطلقة - وكتب إلى وي بي. سنكه، وجندار شيكر، وناراسمها راؤ، والمستر دي وي، وجورا وغيرهم من الرؤساء والمسؤولين.

ونقتبس من الرسالة التي أرسلها إلى آنديرا غاندي رئيسة الوزراء في العهد الذي فرضت فيه حالة الطوارئ، وزجّ في السجون كبار زعماء البلاد من المسلمين وغير المسلمين.

كتب سماحة الشيخ الندوي يشرح فيها الوضع السائد في البلاد في أيام حالة الطوارئ:

«لقد توتر الوضع وازداد سوءاً من ستة أشهر من حين بدأ تنفيذ تحديد النسل بشدة وعنف، وأخاف أن الأخبار الصحيحة لا تصلك، وإلا فكان من غير المعقول أن تتركي الأوضاع تتحول من سوء إلى أسوأ، وأن الوضع الصحيح أن حكومات الولايات -على عكس مقاصد المشرفين على الحكومة والمسؤولين عنها- قد اتخذت تنفيذ هذا القانون، والحصول على النجاح وسيلة هنية في السلطة والجاه، وهم يتسابقون في هذا، ويقع بسبب ذلك من المعاملة ما يقع من حكومة أجنبية ذات عقلية إدارية معلومة وعملائها وأذنابها مع المواطنين

الآمنين الوادعين، وقد أنتج ذلك أن تحولت هذه البلاد إلى ثكنة يسودها القلق والرعب والخوف، ويرتكب الناس لتحقيق مآربهم التافهة والوصول إلى الهدف المطلوب من تحديد النسل كل الأعمال الخسيسة والوحشية، فيصطاد العمال المساكين والقرويون والمحترفون مثل اصطياد الوحوش والطيور في الغابات، وتستخدم وسائل الترهيب والعنف والإطماع والتغريب حتى يكملوا هدفهم».

«وكان نتيجة هذه الأوضاع الطبيعية ذلك الانحطاط الخلقي الذي يسببه الخوف والطمع في بلاد عمّ فيها الجهل من سابق، ومن أخطر الجوانب وأشدّها أسفاً أن أهل البلاد يكادون يحرمون من الشعور بكرامتهم وثقتهم بأنفسهم، التي كانت وجدت بفضل جهود حركة المؤتمر الوطني، وجهود حركة الخلافة، ومساعي قادتنا السياسيين: غاندي، ومولانا آزاد، ومحمد علي، وأسرة نهرو، وظلت البلاد تشعر بأنها لا تزال تعيش حياة العبودية والقهر، ولعله ما تمر لحظة يشعر فيها أي إنسان في هذه البلاد بأنها بلاد حرة ديمقراطية، بعيدة عن كل إجبار وإكراه وعنف، استطاعت بجهودها أن تنال حريتها واستقلالها من حكومة أجنبية، وأخذت بيدها زمام أمورها».

«ولا أرى أحرص على إيجاد هذه الثقة والاعتماد عليه ومن هو أقدر لها وأكثر شعوراً بقيمتها وضرورتها من أعضاء أسرة نهرو، فإن لهذه الأسرة نصيباً أساسياً في هذه الجهود، وقد سقوا هذه الشجرة بعروقهم ودمائهم، فكيف يسوغ أن يروا هذه الشجرة في عهد حكمهم وهي تذوي وتصفر، لقد مست الحاجة الآن إلى مراجعة الأوضاع في البلاد، فإن أي شعب إذا تعود على العبودية والجبن والخوف. وفقد صفات الجرأة والطموح، والثقة، وعمل -عكس ما يحب ويريد- تحت ضغط الخوف، أو طمع المال، وأعتقد أن المحافظة على الحياة والمنصب والوظيفة أهم شيء ولو على حساب الضمير، والغيرة، والثقة بالنفس، فإنه لا موضع للطمأنينة والاستبشار لهذا الشعب مهما تقدم سياسياً أو اقتصادياً وتعليمياً في الظاهر، فإن البلاد بالشعوب، وليست الشعوب بالبلاد،

والشعوب لا تعيش إلا بسيرتها وصفاتها الباطنة الصالحة، وعزتها وجرأتها الخلقية، لا بوسائل معيشتها وارتفاع مستوى حياتها».

«إنه لمن الفشل والخيبة لحركة تحرير البلاد وجهودها وقادتها أن يضطر الناس إلى تذكر عهد العبودية والحكم الأجنبي، وإنه لمن العار أن يتذكر الناس اليوم العهد الإنجليزي. ويتمنوه».

بالإضافة إلى دور سماحة الشيخ الندوي الرائد في كسب ودّ الحكام وأصحاب النفوذ والتأثير في الأغلبية الهندوسية للمسلمين، ولفت انتباههم إلى قضاياهم شارك سماحته مشاركة فعّالة في نشر التعليم الديني في المسلمين وتربيتهم تربية دينية لمنعهم من الذوبان في الثقافة الوثنية، فكان من مؤسسي هيئة التعليم الديني، ورئيساً لها، وتدير هذه الهيئة آلافاً من الكتاتيب الدينية التي تدرس المقررات الدراسية العصرية بجانب الموضوعات الدينية.

كما تولى سماحته رئاسة مجلس الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند، وقاد هذه الحركة بمنهجه الخاص لعدم المجابهة مع الحكومة أو الأغلبية، بل بتفهيم القضايا الإسلامية والرجوع إلى الدستور العلماني، وحل القضايا في المحكمة لا على الشوارع، بقرع أبواب القضاء والقانون بدلاً من حركة المقاومة، ووسائل العنف، إنه يرى أن تغيير القلوب وإثارة الضمير الإنساني خير من تغيير الحكام. وقد كسب سماحته بهذا المنهج السلمي الإيجابي، ودّ الحكام وثقتهم في جميع مراحل حياته، وقد تغير الحكام وتغيرت مناهج الحكم، بتولي أحزاب سياسية مختلفة للحكم، لكن سماحته ظل على صلته بجميع هؤلاء الحكام، وكان رأيه مقبولاً لديهم، ويحرص كل حاكم على التقرب إليه والحصول على تأييده.